مظاهر المقاومة الثقافية الوطنية للإستعمار الفرنسي مطلع القرن 20م

ثالثا:الاهتمام بكتابة التاريخ الوطني

نشطت حركة التأليف في الجزائر مع مطلع القرن 20م، مجسدة "ظاهرتين بارزتين هما:تعلق الكاتب بلغته و ثقافته، و العودة إلى تراث السلف، و إلى تاريخه، و في هذا تعبير عن التمسك بالكيان الجزائري المنفصل عن فرنسا".

ففي مجال إحياء و بعث كتابة التاريخ الوطني، أصدر المؤرخ و الكاتب الجزائري و عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مبارك الميلي كتابه ((تاريخ الجزائر القديم و الحديث)) في جزئه الأول سنة 1929 مركزا فيه على فكرتي الإصلاح و الوطنية، و كما قالت عنه الأستاذة اللبنانية سلمان نور"و هو يجمع بين الفائدة و الالتزام القومي مما دفعه إلى التخلي أحيانا عن موضوعية البحث و منهجيته مختارا الأفضل في تاريخ الجزائر"

وصدر الجزء الثاني من الكتاب في سنة 1932، أشادت جريدة النجاح-لصاحبها عبد الحفيظ الهاشمي- بالعمل الذي قدمه الميلي ، قائلة: «...إن مؤرخي الجزائر الجديدة نفضوا الغبار عن تاريخ أجدادنا...و بعثوا الحياة في بقايا أجدادنا لكي يجعلوهم يخبروننا بأنفسهم عن ماضيهم العظيم و المجيد... ».

و بدوره الأستاذ أحمد توفيق المدني أصدر كتابه الشهير((كتاب الجزائر)) سنة 1932،و حرصت جريدة النجاح على إبراز أهمية هذا الكتاب و الإشارة إلى الإشادة التي عني به هذا العمل من طرف جريدة (السعادة)المغربية، بقولها: «...كتاب جليل الفائدة من أفضل التأليف التي أخرجت للناس في تاريخ القطر الشقيق الجزائر و تطوراته قبل الفتح الإسلامي و بعده و إلى يومنا هذا و بسط القول في تبيان جغرافية البلاد من جميع وجوهها و وصف حالتها الطبيعية و ما وهبها الله من الكنوز المفيدة مع شرح الأنظمة الحالية هناك...و بالجملة فإن كتاب الجزائر جامع يستطلع منه قارئه أحوال الجزائر... »

إضافة إلى مؤلفات أخرى نشرها هذا الأخير، نذكر أهمها: (تاريخ حكم الأتراك في الجزائر)، صدر سنة 1938،وصف من خلاله عصر محمد عثمان باشا أحد حكام الجزائر" الذي اعتبره من أزهى العصور، متحديا الفرنسيين الذين كانوا يصفون العهد التركي بأبشع الصور و يعتبرون احتلالهم للجزائر إنقاذا للمسلمين من ظلم الأتراك"

و ظهر لعبد الرحمان الجيلالي كتاب بعنوان (تاريخ الجزائر العام) سنة 1953 في جزأين، تناول فيه تاريخ الجزائر من أقدم العصور إلى العهد العثماني، هدف منه تمكين الجيل الجديد من الاقتداء بماضي أجدادهم العريق،و من ثمة تحصينه من حضارة المحتل الفرنسي

رابعا: التعليم العربي الحر:

مثل هذا النوع من التعليم مظهرا بارزا في المقاومة الثقافية الوطنية ا ضد التعليم الرسمي الفرنسي الذي استهدف استئصال المقومات الأساسية للشخصية الوطنية، و تكوين نخبة جزائرية مفرنسة متنكرة لماضيها الأصيل يراهن عليها المستعمر في تثبيت أقدامه بالأرض الجزائرية إلى الأبد، سيما و أن محتواه كان فرنسيا بحتا لغة و منهاجا ،و هدف أساسا إلى ربط الجزائر بفرنسا فكرا و دينا و ثقافة، و تثبيط عزائم الجزائريين و قتل الروح الوطنية لديهم من خلال تقديمه معلومات لأطفال الجزائر تؤكد على عظمة فرنسا و قوتها العسكرية و التأكيد على الانجازات الحضارية للاستعمار الفرنسي في الجزائر، بعدما كانت هذه الأخيرة تعيش في فوضى بدون دولة و لا نظام ،و في هذا الصدد كتب الأستاذ الجزائري رابح تركي قائلا: ((أن فرنسا بعد أن بسطت سيطرتها على كل نشاط سياسي و اقتصادي و ثقافي في البلاد، أخذت توجه التعليم في الطريق الذي يضمن لها إضعاف البلاد سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا و ثقافيا))

ارتبط التعليم العربي الحر بتبرعات المحسنين في تمويله و بالمعلمين الأحرار في تأدية رسالته النضالية الوطنية، ورغم ضعف إمكانياته المادية إلا أنه أدى دورا هاما في محاربة الجهل و الأمية و الفرنسة و ذلك بتمكين أطفال الجزائر لاسيما أبناء العائلات الفقيرة في الأرياف من تعليم مباديء الكتابة و القراءة و تحفيظهم القرآن الكريم عن طريق الزوايا الحرة و الكتاتيب القرآنية،و عن دور هاتين المؤسستين يقول الأستاذ أبو القاسم سعدالله في مرجعه(أفكار جامحة):((...عاد الجزائريون إلى وسائلهم القديمة في التعليم باللجوء إلى الكتاتيب و الزوايا التي و إن لم تعطهم علما نافعا في الدنيا فإنها أشبعت نهمهم الروحي وظلت تربطهم بماضيهم، كما أعطتهم سلاحا قويا في استمرار عملية المقاومة والوقوف ضد ذوبان الشخصية الوطنية في شخصية المستعمر))

و المدارس الحرة هي الأخرى أدت دورها في تلقين التلاميذ دروسا في التاريخ و العلوم الإسلامية و الرياضيات و الفلسفة ع ،نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مدرسة الصديقية بتبسة 1913،و مدرسة الشبيبة بتلمسان 1920، و معهد الحياة الثانوي بغرداية سنة 1925 تحت إدارة الشيخ إبراهيم بيوض الذي تولى التدريس فيه ، إضافة إلى دور التعليم المسجدي في الوعظ و الإرشاد، و يمكن اعتبار تجربة الشيخ عبد الحميد بن باديس نموذجا رائدا لهذا النوع من التعليم خلال العشرينيات و الثلاثينيات القرن الماضي، الذي كان حريصا على هذا التعليم بالجامع الأخضر و مسجد سيدي قموش بقسنطينة، في سبيل تحصين النشء من سموم المدرسة الفرنسية الاستعمارية.

و بدورها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بذلت مجهودات منقطعة النظير في ترقية التعليم العربي الحر خلا فترة الثلاثينيات من خلال إنشائها العديد من المدارس الحرة توزعت

عبر كافة أرجاء الوطن، قدر عددها سنة 1935 الدراسي بحوالي 70 مدرسة ضمت حوالي 30000 تلميذ و تلميذة،من أبرزها،مدرسة التربية و التعليم بقسنطينة (1935)،ومدرسة الشبيبة الإسلامية(1936) بالعاصمة ، ومدرسة دار الحديث بتلمسان (1937) التي أغلقتها الإدارة الاستعمارية خلال سنتي1938 و1939 ،ثم أعيد فتحها في سنة 1943، و معهد ابن باديس بقسنطينة (1947) ، يعود الفضل إليها جميعا في الحفاظ على اللغة العربية، و في زرع الروح الوطنية في النشء الجديد و تحريضه على تمسكه بلغة القرآن باعتبارها المقوم الأساسي لشخصيته و عامل رئيسي لجمع شمله والحفاظ على لحمته الوطنية، سيما و أنها كانت مؤطرة من طرف معلمين أكفاء ساهموا برسالتهم التعليمية النضالية الوطنية بكل فعالية في يقظة الشعب و توعيته و الحفاظ على هويته الوطنية رغم الظروف الاستعمارية القاهرة ، و قد أبرزت جريدة البصائر في سنة 1956 التحديات التي كان أيظهرها المعلمون الأحرار في سبيل تأدية رسالتهم التعليمية بقولها:((ليس في الحياة من هو أشقى من المعلم المسكين، فكم كان يقاسي من الأهوال المادية و الأدبية حينما كان تلميذا يعاني من أتعاب الدرس و مشاق الغربة و ألام الفقر، فإنه كالمصباح يحرق نفسه لينير السبيل في دياجير الظلام أمام الإنسانية المعذبة و هو مع كل ذلك صابر على المحن و ساخر من المشاق يحدوه الأمل المشرق و الأماني العذاب في أن يصبح يوما من الأيام عالما من العلماء عاملا مع العاملين ليرفع شأن أمته و إزالة غشاوة الضلال و الأوهام على أبناء وطنه....فالمعلم لاسيما في مدارس القرى هو الإمام ،هو المفتي، هو الواعظ المرشد ، هو المعلم، و هذا منصب خطير في وسط طال على أهله أمد الجهل، و الذل و الفقر فسيطرت على قلوبهم الخرافات الشنيعة و العوائد المهلكة، و العقائد الفاسدة...كيف يتسنى للمعلم المظلوم أن يتغلب على تكاليف الحياة بتلك الدريهمات التي يتقاضها شهريا مقابل جهوده المضنية التي تعينه في كفاحه الشاق و جهاده المرير و الويل للمسكين إن فكر في تكوين العائلة و تأسيس الأسرة كبقية عباد الله الصالحين و ذلك ابعد عنه من بعد السماء عن الأرض....فهو رغم كل ذلك سعيد جدا، سعيد لأنه يؤدي رسالة سامية سعيد في إرضاء ضميره))

كما ساهم التيار الاستقلالي الثوري(حزب الشعب، ثم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية) في الدفاع عن التعليم العربي الحر و ترقيته بإنشائه حوالي 11 مدرسة تعليمية بالعاصمة و أخرى توزعت على مدن بسطيف و مليانة و ندرومة و القل و الحروش و مغنية و وهران ، و من خلال برنامجه، الذي واجه به سياسة فرنسا التعليمية التجهيلية و التغريبية المفروضة على الشعب الجزائري

و عن أهمية هذا التعليم يقول المجاهد عبد الحفيظ أمقران ((هب شعبنا للذود عن شخصيته، و المحافظة على مقوماتها الحيوية ببناء المدارس الحرة التي كان لها اليد الطولى في الإبقاء على اللغة العربية و جوهر الدين الإسلامي، وقد صب العدو جام غضبه على المعلمين

الأحرار و ذوي الخير و الصلاح من المواطنين القائمين بهذه المدارس و التعليم الحر طيلة العهد الاستعماري